

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤ - سُورَةُ الدَّخَانِ

قال المہاجمی : سمیت به لدلالة آیتہ علی أنه جزء غشیان أَدْخَنَةُ النفوس الخبیثة ، بصائرَ قلوب أهلها وأرواحهم . ولذلك رأوا الدلائل شہات الشیاطین . وجعلوا المميز بينهما مجنوناً . وإن القرآن کاشف عنه ککشف الدخان المحسوس عنهم ، وهي مکية . وآیہا خمسون وتسع . روى ^(١) الترمذی مرفوعاً : من قرأ (حمّ الدخان) فی لیلۃ ، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك . ثم قال : غریب . وعمر بن أبی خثعم راویہ ، یضعف . قال البخاری : منکر الحدیث . أفاده ابن کثیر .

(١) أخرجه فی : ٤٢ - کتاب ثواب القرآن ، ٨ - باب ماجاء فی فضل (حمّ الدخان) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حَمّ)

[٢] (وَأَلْكَتَبِ الْمُؤْمِنِينَ)

[٣] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)

« حَمّ * وَأَلْكَتَبِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ » بمعنى ليلة القدر التي قدر فيها سبحانه إنزال ذكره الحكيم . وكانت في رمضان . كما قال سبحانه ^(١) (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) قال ابن كثير : ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان ، فقد أبعد الذمجة . فإن نص القرآن أنها في رمضان . وما روى من الآثار في فضلها ، فثله لا تعارض به النصوص . هذا على فرض صحتها . وإلا فهي ما بين مرسل وضعيف . والبركة اليمن . ولا ريب أنها كانت أبرك ليلة وأعمها على العالمين ، بتزليل ما فيه الحكمة والهدى ، والنجاة من الضلال والردى . قال القاشاني : ووصفها بالباركة ، لظهور الرحمة والبركة ، والهداية والعدالة في العالم بسببها . وازدياد رتبته ﷺ وكاله بها . كما سماها (ليلة القدر) لأن قدره وكاله إنما ظهر بها « إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ » أي من خالف مقتضى الحكمة وقوة الدلائل ، واختار المدام وتذلل للهوى ولم يكتف بهداية الله ، ولم يقت روحه بقوت معارفه ، وذلك لتقوم حجة الله على عباده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

« فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » أي يفصل ويبين كل أمر تقتضيه الحكمة ، على

(١) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

وجه متين محمود عند الكمل تقنات به ارواحهم ، وترحم به نفوسهم . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٦] (رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا » نصب على الاختصاص . أى أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلنا من عندنا على مقتضى حكمتنا . وهو بيان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ » أى مرسلين إلى الناس رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، رحمة منه تعالى بهم ، لمسيس الحاجة إليه . كما قال تعالى^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وجوز كون (رحمة) غلة للإزال . أى رحمة تامة كاملة على العالمين بإزاله ، لاستقامة أمورهم الدينية والدنيوية ، وصلاح معاشهم ومعادهم ، وظهور الخير والكمال والبركة والرشاد فيهم بسببه . والوجه هو الأول . وهو كونه غاية للإرسال . لإفصاح تلك الآية عنه « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ » أى لدعوة حقائق الأشياء بمقتضياتها « الْعَلِيمُ » أى بمقادير قابلياتها ، فلا يبعد عليه الإرسال والإزال . قاله المهامى . وقال القاشانى : أى : السميع لأقوالهم المختلفة في الأمور الدينية الصادرة عن أهوائهم ، (العليم) أى بمقائدهم الباطلة وآرائهم الفاسدة وأمورهم المختلفة ومعايشهم غير المنتظمة . فلذلك رحمهم بإرسال الرسول الهادى إلى الحق فى أمر الدين . الناظم لمصالحهم فى أمر الدنيا ، المرشد إلى الصواب فيهما ، بتوضيح الصراط المستقيم ، وتحقيق التوحيد بالبرهان ، وتقنين الشرائع وسنن الأحكام لضبط النظام .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧]

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

[٨] (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[٩] (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ)

« رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ » قال أبو مسلم : أى إن

كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا . كقولهم (فلان منجد متهم) أى

يريد نجدا وتهامة . اه . وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما تقرون به ، من أنه رب الجميع

وخالقه « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ

فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » أى بل ليسوا بموقنين فى إقرارهم برؤيته . لأن الإيقان يستتبع قبول

البرهان . وإنما هو قول ممزوج بلبس ، لغشيان أذخنة أهوية نفوسهم ، بصائر قلوبهم

وأرواحهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ)

[١١] (يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[١٢] (رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

« فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ * يَغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا

اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » أى انتظر لحازاتهم ذلك اليوم الهائل . ولا يستعمل

(الارتقاب) إلا فى أمر مكروه . وللسلف فى معنى الدخان ثلاثة أوجه : الأول - قال

بعضهم : كان ذلك حين دعا رسول الله ﷺ على قريش أن يؤخذوا بسنين كسنى يوسف .

فأخذوا بالجماعة . قالوا : وعنى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذ فى أبصارهم من شدة الجوع ،

من الظلمة كهبيئة الدخان . روى ابن جرير^(١) عن مسروق قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسا وهو مضطجع بيننا . فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن : إن قاصا عند أبواب كنفة يقصّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ، يأخذ المؤمنین منه كهبيئة الزكام . فقام عبد الله وجلس وهو غضبان ، فقال : يا أيها الناس ! اتقوا الله . فمن علم شيئا فليقل بما يعلم . ومن لا يعلم فليقل (الله أعلم) . فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم (الله أعلم) وما على أحدكم أن يقول لما لا يعلم (لا أعلم) فإن الله عز وجل يقول^(٢) لَنَبِيِّهِ ﷺ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إداربا قال : اللهم سبعا كسبع يوسف . فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف . ينظر أحدهم إلى السماء فيرى دخانا ، من الجوع . فأتاه أبو سفيان بن حرب فقال : يا محمد ! إنك جئت تأمرنا بالطاعة وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فداع الله لهم . قال الله عز وجل^(٣) (فَأَرْقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) إلى قوله^(٤) (إِنَّكُمْ عَمَّا بَدُونَ) قال : فكشف عنهم^(٥) (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) فالبطشة يوم بدر . وقد مضت آية الروم وآية الدخان . والبطشة والزام .

قال ابن كثير : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(٦) ورواه الإمام أحمد^(٧) في مسنده

(١) انظر الصفحة رقم ١١٢ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٦] . (٣) [٤٤ / الدخان / ١٠] .

(٤) [٤٤ / الدخان / ١٥] . (٥) [٤٤ / الدخان / ١٦] .

(٦) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤٤ - سورة الدخان ، ٢ - باب

يَعْفَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، حديث رقم ٥٧٠ ، عن عبد الله بن مسعود .

وأخرجه مسلم في : ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث رقم ٣٩ (طبعنا) .

(٧) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣٨٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث

رقم ٣٦١٣ (طبعة المعارف) .

وهو عند الترمذى^(١) والنسائى^(٢) فى تفسيرهما، وعند ابن جرير^(٣) وابن أبى حاتم من طرق متعددة وقد وافق ابن مسعود رضى الله عنه على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى ، جماعة من السلف كجاهد وأبى المالية وإبراهيم النخعى والضحاك وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير . قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : والظاهر أن مجيء أبى سفیان كان قبل الهجرة . نقول ابن مسعود (ثم عادوا) ولم ينقل أن أبى سفیان قدم المدينة قبل بدر . وعلى هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضرا ذلك . فلذلك قال^(٣) :

* وَأَبْيَضَ يَسْتَسْقَى الْغَنَامُ بِوَجْهِهِ * البيت .

لكن روى ما يدل على أن القصة المذكورة وقعت بالمدينة . فإن لم يحمل على التعمد ، وإلا فهو مشكل جداً . والله المستعان . انتهى .

وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان على هذا معنيين : أحدهما - أن فى سنة الفتح يعظم يمس الأرض بسبب انقطاع المطر ، ويرتفع الغبار الكثير ، وبظلم الهواء . وذلك يشبه الدخان . ولهذا يقال لسنة المجاعة (الغبراء) ثانيهما - أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان . فيقولون (كان بيننا أمر ارتفع له دخان) . والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه ، أظلم عيناه ، فبرى الدنيا كالملوءة من الدخان . انتهى .

وقال الشهاب : الظاهر أن هذه التسمية استمارة . لأن الدخان مما يتأذى به . فأطلق على كل مؤذٍ يشبهه ، أو على ما يلزمه ، ولذا قيل :

تريد مهذباً لا عيبَ فيه وهـل عودٌ يفوح بلادُ دخانٍ

(١) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٤٤ - سورة الدخان ، ١ - باب حدثنا محمود بن غيلان ،

(٢) انظر الصفحة رقم ١١١ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) وعجز البيت : * تَمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ * .

وهذا البيت من قصيدة أبى طالب ، عمّ مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ ، ومطلعها :

خَلِيلِي مَا أَذْنِي لِأَوَّلِ عَاذِلٍ بِصَفْوَاءِ فِي حَقِّ وَلَا عِنْدَ بَاطِلِ

الوجه الثاني في الآية - أنه دخان يظهر في العالم . وهو إحدى علامات القيامة . ولم يأت بعدد ، وهو آت وهو قول حذيفة . ويروى عن عليّ وابن عباس وجمع من التابعين . قال الرازي : واحتج القائلون بهذا القول بوجوه : الأول - أن قوله (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ) يقتضى وجود دخان تأتى به السماء . وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع ، فذاك ليس بدخان أتت به السماء . فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه ، عدولا عن الظاهر ، لا لدليل منفصل ، وإنه لا يجوز . الثاني - أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا . والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم . ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانا مبينا . والثالث - أنه وصف ذلك الدخان بأنه يعشى الناس . وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم ، والحالة التي ذكرتموها لا تعشى الناس إلا على سبيل المجاز . وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل . الرابع - ماروى عن النبي ﷺ من عدّه الدخان من الآيات المنتظرة .

أما القائلون بالقول الأول ، فلا شك أن ذلك يقتضى صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز . وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن جملة على حقيقة ممتنع ، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل ، فكان المصير إلى ما ذكره مشكلاً جداً . فإن قالوا : الدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون (رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) وهذا ، إذا إذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة ، استقام . فإنه نقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله وبالرحم ، ووعده أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ، أن يؤمنوا به . فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم . أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة ، لم يصح ذلك . لأن عند ظهور علامات القيامة ، لا يمكنهم أن يقولوا (رَبَّنَا أَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) ولم يصح أيضا أن يقال لهم (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) والجواب : لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى

ظهور سائر علامات القيامة ، في أنه لا يوجب انقطاع التكليف ، فتحدث هذه الحالة . ثم إن الناس يخافون جدا فيتضرعون . فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق . وإذا كان هذا محتملا ، فقد سقط ماقلوه ، والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

وهكذا رجح الإمام ابن كثير الوجه الثاني، ذهابا إلى ماصح عن ابن عباس، ترجمان القرآن ومن وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة الصحاح والحسان وغيرها ، التي أوردوها ، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة ، على أن الدخان من الآيات المنتظرة . مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى (فَأَرْقَبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) أى بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه ، إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى (يَغْشَى النَّاسَ) أى يتغشاهم ويعمهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) . وقوله تعالى (هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى يقال لهم ذلك ، تقريبا وتوبيخا . كقوله عز وجل (١) (يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ فَارِجِهِمْ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ) أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقوله سبحانه وتعالى (رَبَّنَا أَكْرِفْنَا عَذَابَ الْعَذَابِ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) أى يقول الكافرون إذا عابوا عذاب الله وعقابه ، سائلين رفعه وكشفه عنهم . كقوله جات عظمته (٢) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وكذا قوله جل وعلا (٣) (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا تَيْمِيمُ الْعَذَابُ فِيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) وهكذا قال جل جلاله .

(١) [٥٢ / الطور / ١٣ و ١٤] .

(٢) [٦ / الأنعام / ٢٧] .

(٣) [١٤ / إبراهيم / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (أَنِّي لَهُمْ آلِدٌ كَرِيٌّ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ)

أَنِّي لَهُمْ آلِدٌ كَرِيٌّ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ « أى كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والنفارة . ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه . بل كذبوه وقالوا معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته (١) (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْأِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) الآية . وكقوله عز وجل (٢) (وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأَخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ) إلى آخر السورة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)

« إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » يحتمل معنيين : أحدهما - أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى (٣) (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّنْ ضُرٍّ لَلَجَّوْا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) وكقوله جلت عظمته (٤) (وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والثاني - أن يكون المراد إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باسراهم . كقوله تعالى (٥) (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِرْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَجَّيْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ولم يكن العذاب باسراهم واتصل بهم .

(١) [٨٩ / الفجر / ٢٣] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٥١] .

(٣) [٢٣ / المؤمنون / ٧٥] . (٤) [٦ / الأنعام / ٢٨] .

(٥) [١٠ / يونس / ٩٨] .

بل كان قد انعقد سببه عليهم . ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقلموا عن كفرهم ثم عادوا إليه . قال الله تعالى ، إخبارا عن شعيب عليه السلام ؛ أنه قال لقومه حين قالوا^(١) (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعْمُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كِرِهِينَ * قَدْ أُفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا) وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم . وقال قتادة : (إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) إلى عذاب الله . وقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ)

« يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » فسّر ذلك ابن مسعود رضى الله عنه بيوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضى الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم . وروى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب رضى الله عنه وجماعة عنه ، وهو محتمل . والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير^(٢) : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال ابن مسعود رضى الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة في أصح الروايتين عنه . والله أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

فصل :

وممن رجح الوجه الأول ، وهو أن المراد بالدخان يوم الجماعة والشدة مجازا ، بذكر المسبب وإرادة السبب . أو بالاستعارة ، العلامة أبو السعود حيث قال : والأول هو الذى يستدعيه

(١) [٧ / الأعراف] [١٨٨ و ١٨٩] .

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

مساق النظم الكريم قطعاً . فإن قوله تعالى (أَنْتَ أَلْهَمُهُمُ الَّذِي كَرَىٰ) الخ ، ردّ لكلامهم واستدعائهم الكشف ، وتكذيب لهم في الوعد بالإيمان ، المنجي عن التذكر والاتعاب بما اعتراهم من الداهية . أى كيف يتذكرون ؟ أو من أين يتذكرون بذلك ويفنون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ؟ (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) أى والحال أنهم شاهدوا من دواعى التذكر ، وموجبات الاتعاب ما هو أعظم منه فى إيجابها . حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، وبين لهم مناهج الحق ، بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة ، تحرّلتها صمّ الجبال (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) عن ذلك الرسول وهو هو ، ربّما يشاهدون منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للإقبال عليه . ولم يقتنعوا بالتولى (وَقَالُوا) فى حقه (مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) أى قالوا تارة : يملّمه غلام أجمى لبعض ثقيف . وأخرى مجنون . أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا . فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟ وما مثلهم إلا كمثل الكلب إذا جاع ضعف ، وإذا شبع طغى . وقوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) جواب من جهته تعالى عن قولهم (رَبَّنَا كَشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) بطريق الالتفات ، لمزيد التوبيخ والتهديد . وما بينهما اعتراض . أى إنا نكشف العذاب المعبود عنكم كشفا قليلا ، أو زمانا قليلا . إنكم تعودون إثر ذلك إلى ما كنتم عليه من العتوّ والإصرار على الكفر . وتنسون هذه الحالة . وفائدة التقييد بقوله (قَلِيلًا) الدلالة على زيادة خبيثهم . لأنهم إذا عادوا قبل تمام الانكشاف ، كانوا بعده أسرع إلى العود . وصيغة الفاعل فى الفعلين ، للدلالة على تحققهما لا محالة . ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى ، بدعاء النبي ﷺ . فما لبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من العتوّ والعتاد . انتهى ما قاله أبو السعود بزيادة .

فصل :

وأما الوجه الثالث فى الآية ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى . حدثنا جعفر بن مسافر .

حدثنا يحيى بن حسان . حدثنا ابن مهبة . حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) قال: كان يوم فتح مكة . قال ابن كثير: وهذا القول غريب جداً بل منكر . انتهى .

أى لأنه لم يروَ مرفوعاً ولا موقوفاً على ابن عباس، ترجمان القرآن. أو غيره من الصحب. إلا أن عدم كونه مأثوراً لا ينافي احتمال لفظ الآية له ، وصدقها عليه . لا سيما ، ويؤيده قوله تعالى في آخر السورة (فَأَرْتَبَ لَهُمْ مِرَّةً يُقْبُونَ) مما هو وعد بظهوره عليهم . وكان ذلك يوم الفتح . وحينئذ ، فعنى قوله تعالى (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ) أى ما ينزل بهم يومئذ ، برفع القتل والأمر عنهم . ومعنى (عَمَّادُونَ) أى إلى لقاء الله ومجازاته .

فصل :

يظهر مما نقلناه عن السلف في هذه الآية من الأقوال الثلاثة ، أن هذه الآية من الآى اللاتى أخذت من الصحب ، عليهم الرضوان ، اهتماماً فى معناها ، وعناية فى البحث عن المراد منها . حتى كان ابن مسعود مصرّاً على وجهه ، وعلى ابن عباس وحذيفة على وجه آخر . على ما أسند عنهم من طرق . ولعمر الحق ! إن هذه الآية لجديرة بزيادة العناية . وهكذا كل ما كان من معارك الأنظار للأئمة الكبار . وسبب الاختلاف هو إيجاز الأسلوب الكريم ، وإيثاره من الألفاظ أرقها ، وأوجزها . مما يصدق لبلاغته حقيقة تارة ومجازاً أخرى . هذا أولاً . وثانياً ، لما كان كثير من الأحاديث المروية تتشابه مع الآيات ، كان ذلك مما يقرب بينهما ويدعو إلى اتحاد المراد منهما . لما تقرر من شرح السنة للكتاب . وهذا ما درج عليه المحدثون قاطبة . فترى أحدهم إذا رأى فى خبر ما يشير إلى آية ، قطع بأنه تفسيرها ووقف عنده ولم يتقدمه . وأما من فتح للتدبر باباً ومهد للنظر مجالاً ، ورأى أن الأثر قد يكون من محمولات الآية وما صدقاتها ، وأنها أعم وأشمل ؛ أو إن حمل الخبر عليها اشتباه أفضى إليه التشابه ،

فذاك وسع للمسالك المسالك ، وفتح للمريد المدارك . ورفاه من حظيرة النقل إلى فضاء العقل .
ولكل وجهه .

إذا علمت ذلك ، رأيت أن من فسر هذه الآية بالمجاعة التي حصلت لقريش ، أمكنه تطبيق
الآية عليها مجازاً في بعض مفرداتها ، وحقيقة في بقيتها وفي وقوع مصداقها ، في رأيه . ومن
فسرها بالدخان المنتظر ، الروى من أشراط الساعة ، وقف مع الروى ورأى أنه تفسيرها .
لأن الأصل التوافق والجل على المعهود . لأنه الأقرب خطورا والأسبق حضورا . ومن فسرها
بالظهور عليهم يوم الفتح ، رأى أنها من بليغ المجاز وبديع الكناية في ذلك . وأن الوعد
بالارتقاب . كثير أشباهه ونظائره في غير ما آية ، مرادا به الفتح . كآية (١) (وَيَقُولُونَ مَتَى
هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ * فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ فَمَنْعَهُمْ وَأَنْظَرَهُمْ فَأَنْظَرَهُمْ مُنْتَظِرُونَ) فهذا وأمثاله يبين ماخذ الأئمة
ومداركهم في التأويل . وبه يعلم أن أطراف المدارك قد تتجاذب اللفظ فتستوقف الرأى عن
التشيع لمدرک دون آخر . ما لم يكن نمة ما يرشح أحدها وقد يظن الواقف على كلام الرازى
المتقدم ، واحتجاجه للوجه الثانى بما أطال به ، أن لا منتدح ، بعد ، عنه . مع أن للذهاب إلى
غيره أن يجيب عن احتجاجه بما أسلفنا من صحة المجاز . بل وقوته هنا . لأن المقام مقام إنذار
وإبعاد . والدوق أكبر حاكم وإليه مراد البلاغة . ولا يلزم التأول نكرانه للدخان المنتظر .
كما قد يتوهم . بل يعترف بأنه آية آتية يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وينقلب
هذا النظام إلى نشأة ثانية . وأنه لا يلزم من الاشتراك اللفظى اتحاد المتلو والروى . وبالجملة ،
فاللفظ السكريم يتناول المعانى الثلاثة . وسببه تحقق مصداق الجميع . وأما تعيين واحد منها
للراد ، فصعب جدا فيما أراه . لاسيما ولم يتفق الصحب على رأى فيها . هذا ما نقوله الآن .
والله العليم . وقوله تعالى :

(١) [٣٢ / السجدة / ٢٨ - ٣٠] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ » أى ابتلينا ، قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ، بإرسال موسى عليه السلام إليهم ليؤمنوا . فاختاروا الكفر على الإيمان « وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » أى على الله والمؤمنين . أو فى نفسه . فعلى الأول كريم بمعنى مكرم أى معظم . وعلى الثانى ، من الكرم بمعنى الاتصاف بالخصال الحميدة ، حسبا ونسبا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

« أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ » أى أرسلوا معى بنى إسرائيل ، لأسير بهم إلى بلادنا الأولى . وأطلقوهم من أسركم وحبسكم . فإنهم قوم أحرار ، أبوا ، للضيم ، هذه الديار « إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ » أى على وحيه ورسالته ، التى حملنيها إليكم ، لأنذركم بأسه إن عصيتم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ، إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ)

« وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ » أى بإنكار ربوبيته ، ودعوى الربوبية لأنفسكم ، وتكذيب رسوله وغضب عباده « إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ » أى حجة واضحة على ربوبية الله ، ونفى ربوبيتكم . وعلى رسالتي . وعلى أن بنى إسرائيل عباده الخاصة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ)

« وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ » أى اعتصمت به من رجسكم . يعنى القتل ، فعصمتنى ، فلا ينالنى منكم مكروه ، مع أنه لا يعصم من افتري عليه . وقصد بهذه الجملة

إظهار مزيد شجاعته وثباته في موقف تضطرب فيه الأفئدة ، وتزل الأقدام ، خوفا ورعبا .
وما ذاك إلا لإيوائه إلى عصمة الله وتأيمده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِنْ لَّمْ تُوْثِقُوا لِي فَاَعْتَرِ لُونِ)

« وَإِنْ لَمْ تُوْثِقُوا لِي فَاَعْتَرِ لُونِ » أى فكونوا بمعزل عني . فلست بموالٍ منكم أحدا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فِدْعَا رَبِّهِ - أَنْ هَآؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ)

« فِدْعَا رَبِّهِ » أى لما تابوا عن إجابته « أَنْ هَآؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ » أى مشركون

مفسدون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَآسِرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ)

« فَآسِرِ بِعِبَادِي لَيْلًا » أى فأجاب دعاءه ، وأوحى إليه بأن سر بقومك ليلا « إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ » أى إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم . إذا شخصتم عن بلدكم وأرضهم ليرجعوكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَأُتْرِكِ الْبَحْرَ رَهَوًا ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ)

[٢٥] (كَمْ تَرَ كُؤًا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ)

« وَأُتْرِكِ الْبَحْرَ رَهَوًا » أى فإذا قطعت البحر أنت وأصحابك ، فاتركه ساكنا على حاله
التي كان عليها حين دخلته ، ولا تضربه بعصاك ليدخله القبط فيغرقوا « إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ »
كم تَرَ كُؤًا » أى بعد هلاكهم بالغرق « مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ » أى بساتين وعيون يستقى
منها ويتنعم بالنظر فيها ، هذا في التفكه والتنزّه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

« وَزُرُوعٍ » أى قاعة في مزارعهم للقوت « وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » أى محافل مزينة ومنازل مزخرفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)

« وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ » أى متممين من نساء وأموال وحشم، ومالا يحصى من المشتهيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ)

« كَذَلِكَ » أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج . فالسكاف، أو الجار والمجرور صفة مصدر مفهوم من الترك . أو هو خبر محذوف . أى الأمر كذلك . والمراد به التأكيد والتقريب « وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ » يعنى من خلفهم بعد مهلكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)

« فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » قال الزمخشري : إذامات رجل خضير، قالت العرب في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض . وبكته الريح وأظلمت له الشمس . قال جرير^(١) :

* تَبَكَّى عَلَيْكَ نَجْمُ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا *

(١) قطعة من ثلاثة أبيات رثى بها عمر بن عبد العزيز . وصدر البيت .

* فَالسَّمْسُ كَامِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِمَةٍ *

(الديوان ج ١ ص ٣٠٤)

وقالت الخارجية^(١) :

أَيَا شَجَرَ الْخَابِرِ مَالِكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه . وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنه من بكاء مصلى المؤمن وآثاره في الأرض ، ومساعد عمله ومهابط رزقه في السماء : تمثيل . ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى^(٢) (فَمَا بَسَّكَ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ) فيه تهكم بهم وبجأهم ، المناهية لحال من يعظم فقدده . فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . وعن الحسن : فبا بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين . يعنى : فبا بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض « وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » أى مؤخرين بالعقوبة . بل عوجلوا بها ، زيادة سخط عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ)

«وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ» يعنى استعباد فرعون وقتله أبناءهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (مِنَ فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ)

«مِنَ فِرْعَوْنَ» بدل من العذاب ، على حذف مضاف . أو جعله عذابا ، مبالغة لإفراطه فى التعذيب . أو حال من (المهين) بمعنى واقعا من جهته «إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا» أى متكبرا على الناس «مِنَ الْمُسْرِفِينَ» أى المتجاوزين الحد ، فى العتو والشر .

(١) البيت لليلى بنت طريف الشيباني . ترضى أخاها الوليد ، وكان يزيد بن مزيد قتله .

والقصيدة مطامها :

بَقَلُّ بُنَاتًا رَسْمٌ قَبْرُ كَأَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ قَوْقُ الْجِبَالِ مُنِيفٍ

(الأغانى ج ١٢ ص ٩٣ ، طبعة الدار) . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ)

« وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ » أى فضلناهم لأجل علمهم معهم ، على عالمي زمانهم .
أو عالمين بأنهم أحقاء بأن يختاروا ويؤثروا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْأَيَّاتِ مَا فِيهِ بَلَآءٌ مُّبِينٌ)

« وَءَاتَيْنَاهُمْ » أى زيادة على اختيارهم وتفضيلهم « مِّنَ الْأَيَّاتِ » أى المعجزات
والكرامات « مَا فِيهِ بَلَآءٌ مُّبِينٌ » أى نعمة ظاهرة ، لأنهم حجة واضحة على أعدائهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّ هَآؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ)

[٣٥] (إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُخْشَرِينَ)

« إِنَّ هَآؤُلَآءِ » أى مشركي قريش « لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ » أى
المتعقبية للحياة . كأنهم أرادوا إلا موتتنا هذه . وليس القصد إلى إثبات ثانية . قال الإسفوي
في (التمهيد) : الأول في اللغة ابتداء الشيء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون . كما تقول : هذا
أول ما اكتسبته . فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب . كذا ذكره جماعة ، منهم
الواحدى في تفسيره ، والزجاج . ومن فروع المسألة ، ما قال : إن كان أول ولد تلدينه ذكراً فأنث
طالق ، تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره ، بالاتفاق . قال أبو علي : اتفقوا على أنه ليس من
شرط كونه أولاً ، أن يكون بعده آخر . وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره . انتهى .
وما ذكر أظهر مما للزخشري هنا « وَمَا نَحْنُ بِمُخْشَرِينَ » أى مبعوثين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى بعثنا بعد بلائنا فى قبورنا . قال ابن كثير : وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة . فإن العاد إنما هو يوم القيامة ، لافى دار الدنيا . بل بعد انتضاءها وذهابها وفراغها ، يعيد الله العالمين خلقا جديدا . ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا . ثم أنذرهم تعالى بأسه الذى لا يرد ، كما حلّ بأشباهم من الشركين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)

« أَمْ خَيْرٌ » أى فى القوة والمنعة « أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ » إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ « أى أهلكناهم بجرمهم . وهو كفرهم وفسادهم . وهم ما هم . فابال قريش لا تخاف أن يصيبها ما أصابهم ؟ وقوم تبع هم حمير وأهل سبأ . أهلكهم الله عز وجل وفرقهم فى البلاد شذر مذر . كما تقدم فى سورة (سبأ) قال ابن كثير : وقد كانوا عربا من قحطان . كما أن هؤلاء عرب من عدنان . وكانت حمير كلما ملك فيهم رجل سموه تبعا . كما يقال (كسرى) لمن ملك الفرس و (قيصر) لمن ملك الروم . و (فرعون) لمن ملك مصر كافرينا . و (النجاشي) لمن ملك الحبشة . وغير ذلك من أعلام الأجناس ، ولكن اتفق أن بعض تبايعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند . واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه . واتسعت مملكته وبلاده وكثرت رعاياه . وهو الذى مصرّ الحيرة . فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية ، وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فأنعوه وقتلوه بالنهار وجعلوا يقرؤنه بالليل . فاستحيا منهم وكف عنهم . واستصحب معه حبرين من أحبار يهود ، كانا قد نصحاها وأخبراه أن لأسييل له على هذه البلدة ، فإنها مهاجر نبيّ يكون فى آخر الزمان . فرجع عنها وأخذها معه إلى بلاد اليمن . فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة . فنهاه عن ذلك أيضا ، وأخبراه بعظمة

هذا البيت ، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبي المبعوث فى آخر الزمان . فمظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر . ثم كرت راجعا إلى اليمن ، ودعا أهلها إلى اليهود معه . وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام ، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام ، فهو د معه عامة أهل اليمن . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه (السيرة) . وترجمه الحافظ ابن عساكر فى (تاريخه) ترجمة حافلة . وذكر أنه ملك دمشق . وساق ماروى فى النهى عن سبه ولعنه . قال ابن كثير : وكأنه ، والله أعلم ، كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دين السكيم على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق . قبل بعثة المسيح عليه السلام . وحج البيت فى زمن الجرهميين وكساه الملاء ، والوصائل من الحرير والحبر . ونحر عنده ستة آلاف بدنة . وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسطة ، عن أبي بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ، وكعب الأحبار . وإليه المرجع فى ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا . وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق فى (السيرة) كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ، ترجمة تبع هذا ، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل . فإن تبعا هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه . ثم لما توفى عادوا بعده إلى عبادة الثيران والأصنام . فعاقبهم الله تعالى ، كما ذكره فى سورة سبأ . وتبع هذا هو تبع الأوسط . واسمه أسعد أبو كرب . ولم يكن فى حمير أطول مدة منه . وتوفى قبل مبعث النبي ﷺ بنحو من سبعمائة سنة وذكروا أنه لما ذكر له الخبران من يهود المدينة ، أن هذه البلدة مهاجر نبيّ فى آخر الزمان اسمه أحمد ، قال فى ذلك شعرا . واستودعه عند أهل المدينة . فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفا عن سلف . وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، الذى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى داره ، وهو :

شهدتُ على أحمدٍ أنه رسولٌ من الله باري النَّسَمِ
فلو مُدَّ عُمُرِي إلى عُمُرِهِ لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمِّ
وجاهدتُ بالسيفِ أعداءَهُ وِفَرَجْتُ عن صدرِهِ كُلَّ غَمِّ

ثم ساق ابن كثير آثارا في النهي عن سبه : وبالجملة فإن قصته المذكورة والمروي في شأنه ، وإن لم يكن سنده على شرط الصحيح ، إلا أن ذلك مما يتحمل التوسع فيه ، لكونه نبأ محضاً مجردا عن حكم شرعي . نعم ، لا يشك أن قريشا كانت تعلم من نخامة نبئه المروي لها بالتواتر ، ما فيه أكبر موعظة لها . ولذا طوى نبأه ، بإحالة على ما تعرفه من أمره ، وما تسمر به من شأنه . وما القصد إلا العظة والاعتبار ، لاقص ذلك خيرا من الأخبار ، وسما من الأسما ، كما هو السر في أمثال نبئه . وبالله التوفيق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِّلْعَبِيدِ)

[٣٩] (مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِّلْعَبِيدِ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »
أى الاستدلال على خالقهما ، لعبادته وطاعته « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى حكمة خلقها ، فيعرضون عنه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٤١] (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

[٤٢] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ » أى فصل الله بين الخلائق وقضائه عليهم ، ليجزيهم بما أسلفوا

من خير أو شرَّ « مِمَّنْهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا » أى من إثابة أو تحمّل عقاب « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ » أى بأن وفقه للإيمان والعمل الصالح « إِنَّهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى الغالب فى انتقامه من أعدائه « الرَّحِيمُ » أى بأوليائه وأهل طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقْوَمِ)

« إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقْوَمِ » أى التى هى أخبث شجرة معروفة فى البادية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (طَعَامُ الْأَيْمِ)

« طَعَامُ الْأَيْمِ » أى الفاجر الكثير الآثام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ)

[٤٦] (كَغَلَى الْحَمِيمِ)

« كَالْمُهْلِ » وهو دردى الزيت ، أى عكره فى قعره « يَغْلِي فِي الْبُطُونِ » أى يضطرب فيها من شدة الحرارة فيقلق القلوب ويحرقها . وقوله « كَغَلَى الْحَمِيمِ » أى الماء الحار الذى انتهى غليانه . وقوله (فِي الْبُطُونِ) كقوله (١) (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطْلَعُ عَلَى الْأَفْسِدَةِ) وهذه الآية كآية الصافات (٢) (أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقْوَمِ * إِنْآ جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَكَاوِنٌ مِّنْهَا فَمَا أَلُونِ مِنْهَا الْبُطُونَ * نُمْ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) .

(١) [١٠٤ / الهمة / ٧٦] . (٢) [٣٧ / الصافات / ٦٢-٦٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ)

« خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ » أى اذفعوه بعنف « إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ » أى وسطها ومعظمها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ)

« ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » أى لتستوفى جميع أجزاء بدنه نصيبها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)

« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » أى يقال له ذلك ، على سبيل الهزؤ والتهمك ، فيتم له ، مع العذاب الأول ، وهو الحسى ، العذاب العقلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ)

« إِنَّ هَذَا » أى العذاب أو الأمر « مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ » أى تشكون ، مع ظهور دلائله . أو تمارون وتلاحون .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ » أى يأمن صاحبه من الخوف والفرع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٣] (يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّيَلِينَ)

« فِي جَنَّةٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ » أى مارق من الحرير وكثف « مُتَّيَلِينَ » أى فى مجالسهم أو أماكنهم ، لحسن ترتيب الغرف ، وتصفيف منازلهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

« كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » أى قرناهم بما فيه قرّة أعينهم واستئناس قلوبهم ، لوصولهم بمحبوبهم ، ووصولهم على كمال مرادهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ)

« يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ » أى يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ، آمنين من كل ضرر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ، وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

[٥٧] (فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

[٥٨] (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لَيْسَانَكَ لَعَلَّهَمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٩] (فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ)

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ » قال ابن جرير^(١) : أى لا يذوق

هؤلاء الملقون فى الجنة ، الموت بعد الموت الأولى ، التى ذاقوها فى الدنيا .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وكان بعض أهل العربية يوجه (إلا) هنا بمعنى (سوى) أى سوى الموتة الأولى . انتهى .
 يعنى أن الاستثناء منقطع . أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا « وَوَقَّعَهُمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ »
 أى سهّلناه حيث أنزلناه بلغتك ، وهو فداكك للسورة « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتمظون
 بعبره وعظاته وحججه ، فينبهوا إلى طاعة ربهم ويذعنوا للحق « فَأَرْقَبُ » أى ما يحل بهم
 من زهوق باطلهم « إِنَّهُمْ مُّرْتَابُونَ » أى منتظرون عند أنفسهم غلبتك . أو هو قولهم
 (نَتَرَبِّصُ بِهِمْ رَبِّبَ الْمُتَمَنُونَ) وهذا وعدله ﷺ بالنصرة والفتح عليهم ، وتسليمه
 ووعيد لهم . وقد أنجز الله وعده ، كما قال سبحانه^(١) (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)
 وقوله تعالى^(٢) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
 الْأَشْهُدُ) .

(٢) [٤٠ / غافر / ٥١] .

(١) [٥٨ / المجادلة / ٢١] .